

ا.د.سعاد هادي حسن الطائي  
تاريخ العصر العباسي المتأخر  
المرحلة الرابعة

عنوان المحاضرة: الصراع السياسي والعسكري  
بين الامارة الغزنوية والقراخانية (387 –  
431هـ / 997 – 1039م)

كانت العلاقات السياسية بين الامارة الغزنوية والامارة القراخانية ، غير مستقرة ، فتارة يسود هذه العلاقة الهدوء والسلام القائم على اساس عقد العهود والمواثيق بين الطرفين ، وتارة اخرى يشوب هذه العلاقة التوتر الذي قاد في احيان كثيرة الى المصادمات العسكرية بين الطرفين .

لم تكن الحروب التي خاضها القراخانيون ضد الغزنويون ايجابية في معظمها لصالحهم ، اذ كانت خسائرهم كبيرة في معظم هذه الحروب ، فعندما استولى السلطان محمود الغزنوي على الولايات الواقعة شمال نهر جيحون كان يأمل من ذلك ان يُعترف به حاكماً على الشرق ، وان لا يتصل القراخانيون بالخليفة العباسي الا بواسطته ، ولهذا اتجه القراخانيون بفتوحاتهم الى شرق تركستان لمحاربة الكفار من الاتراك ، وكان السلطان محمود الغزنوي ينظر في علاقاته مع القراخانيين انهما متساويان سواء في حالة النصر ام في حالة الهزيمة ، وهذا ما اتضح فيما بعد من خلال السفارات الدبلوماسية التي تبودلت بين الطرفين .

. فقد ساهم الغزنويون في مساعدة الامارة السامانية ضد القراخانيين عندما طلبوا منهم ذلك .

ففي سنة 387هـ/997م بعث الامير الساماني نوح بن منصور رسالةً الى الامير الغزنوي سبكتكين - كما ذكرنا سابقاً في الفصل الثاني - طالباً منه مساعدته لصد خطر الامير القراخاني ايليك خان نصر ناصر الحق ، وقد استجاب الامير سبكتكين لطلب المساعدة ، فارسل جيشه لمساعدة الامير الساماني ، وقد عسكر هذا الجيش بين مدينتي نسف وكش ، ولحق السلطان محمود بهذا الجيش ، اما الامير القراخاني ايليك خان فقد جمع امم الترك من سائر النواحي ، وبعث الامير القراخاني رسله الى الامير سبكتكين طالباً منه عقد الصلح ، وقد وافق الامير سبكتكين على ذلك على ان تكون بادية قطوان الحد الفاصل بين حدود بلاد الطرفين وان تتم سيطرتهم على جميع البلاد الواقعة شمال حوض طبرستان، وبهذا احتفظ القراخانيون بحوض نهر سيحون كله ولم يقيموا في بخارى واتخذوا من مدينة كاشغر عاصمة لهم واصبحت بلاد ما وراء النهر تابعة لهم .

الا ان العلاقات السياسية بين الامارة الغزنوية والقراخانية سرعان ما اتخذت منهجاً سياسياً اخر في عهد السلطان محمود الغزنوي .

ففي سنة 396هـ/1005م بعث السلطان محمود الغزنوي وفداً الى الامير القراخاني ايلك خان ناصر الحق نصر بن علي وقد ترأس الوفد امام الحديث الشريف ابو الطيب سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي ومعه طغان جق والي سرخس ، وذلك لتهنئة الامير القراخاني لما حققه من نصر في فرض سيطرته على بخارى وليخطب لنفسه ابنة الامير القراخاني ، وقد حمل هذا الوفد معه هدايا ثمينة مقدمة من السلطان محمود الغزنوي والتي كانت تتضمن سبائك الذهب والياقوت والدر والمرجان فضلاً عن العطور ، وقد استقبلهما الامير القراخاني بالترحاب موافقاً على تزويج ابنته من السلطان محمود الغزنوي ، وعقدت معاهدة بين الطرفين تم الاتفاق فيها على ان يكون نهر جيحون حداً فاصلاً بين الامارتين

الا ان استقرار العلاقة بين الامارة الغزنوية والقراخانية لم يستمر طويلاً ، فبينما كان السلطان محمود الغزنوي يواصل جهاده في نشر الدين الاسلامي في الهند، اغتتم الامير القراخاني ايلك خان ناصر الحق غياب السلطان محمود عن خراسان فارسل جيشه بقيادة سباشي تكين الى خراسان ، وبعث اخاه جعفر تكين الى بلخ مع عدد من امراء الجيش

. وكان السلطان محمود الغزنوي قد امر امير جيشه ارسلان الجاذب بأن يتوجه الى مدينة غزنة في حالة تعرضها للخطر ، وفي اثناء ذلك تمكن القائد سباشي تكين من فرض سيطرته على مدينة هراة واستقر بها ، ثم توجه الى مدينة نيسابور وتمكن من فرض سيطرته عليها .

وقد وصلت اخبار ذلك الى السلطان محمود وهو في الهند فعاد مسرعاً جامعاً عساكره ويساعده عدد من الاتراك الخلجية ، وجعل على ميمنته حاجبه ابا سعيد التمر تاشي وعلى الميسرة ارسلان الجاذب واستخدم ايضاً عدد من الفيلة في هذه المعركة ، وسار السلطان محمود مع جيشه الى بلخ وكان بها جعفر تكين فغادرها الى ترمذ ، ودخل السلطان محمود مدينة بلخ وبعث منها جيشه الى هراة ثم الى مرو ومنها الى اببيورد ثم الى جرجان ومنها سار متوجهاً الى خراسان الا انه لم يتمكن من دخولها في بداية الأمر ، اما الامير القراخاني فقد توجه مع اخيه جعفر تكين الى بلخ ليُبعد القائد سباشي تكين عن خراسان ففر هارباً الى بلخ ، وبذلك خضعت خراسان لسلطة السلطان محمود الغزنوي سنة 397هـ/1006م.

وبعد نجاح السلطان محمود في فرض سيطرته على خراسان ، بعث الامير القراخاني ايلك خان ناصر الحق رسالة الى الامير القراخاني قدر خان بن بغراخان ملك الختل والذي تربطهما صلات قرابة ، شارحاً له ما حصل له مع السلطان محمود وطالباً منه العون ، فاستجاب له ، وسار الاثنان لملاقاة السلطان محمود الذي كان في طخارستان .

فتركها بعد ان وصله خبر مسير الاميرين القراخانيين لمواجهته ، وقد نجح السلطان محمود في الوصول الى بلخ قبلهما ، وقد شارك مع السلطان محمود في هذه المعركة عدد من الاتراك الغزية والخلج والهنود والافغان وغيرهم ، فخرج بهم من بلخ معسكراً على بعد فرسخين منها وفي مكان فسيح يصلح للقتال ، بينما اقام الاميران القراخانيان معسكرهما بالقرب من معسكر السلطان محمود ، وبدأ القتال بين الطرفين والذي استمر حتى اليوم الثاني ، وقد نجح السلطان محمود من الحاق الهزيمة بهما وقتل وأسر اعداداً كبيرة منهم

أما الأمير ناصر الحق القراخاني فقد دخل في صراع مع أخيه الأمير طغان خان سنة 401هـ / 1010م وذلك لصلته الحميمة مع السلطان محمود ، فبعث الأمير طغان خان رسله الى السلطان محمود يعتذر له فيها عما بدر من أخيه ويطلباً من تصرفاته تجاهه باعثاً مع رسله رسالة له يوضح له ذلك بقوله : ( اني ما رضيت ذلك منه ) .

أما الأمير ناصر الحق فقد خرج من مدينة اوزكند لقتال أخيه طغان خان الا انه عاد الى سمرقند بسبب تساقط الثلوج بكثرة .

وسرعان ما نجح السلطان محمود في تسوية النزاع بين الاخوين وتم عقد الصلح بينهما ، فارسلوا رسلهم الى السلطان محمود سنة 402هـ / 1011م فآكرمهم واستقبلهم احسن استقبال

ويبدو ان العلاقات قد ساءت بين السلطان محمود وبين الأمير ناصر الحق من جديد . ففي سنة 403هـ / 1012م ، اعد الأمير ناصر الحق قواته لمقاتلة السلطان محمود في خراسان ، وبعث رسله الى الأميرين القراخانيين قدر خان وطغان خان طالباً منهما مساعدته في حربه ضد السلطان محمود الا انه توفي وتولى الامارة القراخانية من بعده اخوه طغان خان، وبعث رسله الى السلطان محمود لعقد الصلح معه

. وقد استمرت العلاقة بين السلطان محمود والأمير طغان خان قائمة على اساس الود والوفاء لسنوات عدة .

ففي سنة 408هـ / 1017م تعرض هذا الأمير القراخاني لخطر الاثراك الكفار والخطا من بلاد الصين ، مستغلين سوء حالته الصحية ، وتوجهت تحشداتهم العسكرية والتي بلغت 300 الف خركاة ( أي خيمه ) لقتال الأمير طغان خان ومحاولة منهم لفرض سيطرتهم على بلاده ، فبعث هذا الأمير رسالة الى السلطان محمود طالبا منه المساعدة لمواجهة هذا الخطر ، فاستجاب السلطان محمود لطلبه وتمكنا معاً من الحاق الهزيمة بجموع الكفار والاطاحه بهم .

وقد استمرت العلاقة الودية بين الامارة القراخانية والغزنوية بعد وفاة الامير طغان خان سنة 408هـ / 1017م.

اذ تولى الامارة القراخانية بعد وفاة الامير طغان خان اخيه الامير ارسلان خان ابو المظفر الملقب شرف الدولة ، ففي عهده بعث السلطان محمود رساله اليه طالباً منه تزويج ابنة اخيه ايلك خان لابنه الامير مسعود ، وقد وافق الامير ارسلان خان على طلب السلطان محمود واقيم احتفال كبير للعروسين في مدينه بلخ.

وبحكم هذه العلاقة التي تربط بين الامير ابي المظفر والسلطان محمود استتجد هذا الامير بالسلطان محمود سنة 409هـ / 1018م لمساعدته ضد اخيه قدر خان يوسف بن بغراخان هارون بن سليمان الذي ملك بخارى ، والذي كان نائباً عن الامير طغان خان في سمرقند ، فقد اعلن قدرخان عن تمرد ضد اخيه ابي المظفر ، وقد استجاب السلطان محمود لطلب الامير ابو المظفر ومساعدته ضد اخيه ، وعقد السلطان محمود جسرا من السفن محكمة الربط بسلاسل حديدية على نهر جيحون ، الا ان المواجهة العسكرية لم تقع بين الطرفين لأسباب غير معروفة .

غير ان الامير ابا المظفر وقدرخان سرعان ما عقدا الصلح بينهما وقررا ان يتوجها مع جيشهما لفرض سيطرتهما على البلاد الخاضعة لسلطة السلطان محمود سنة 410 هـ / 1019م ، فسارا متوجهين الى مدينة بلخ فوصلت اخبار تحركاتهما الى السلطان محمود فاستعد لقتالهما والحق بهما الهزيمة مكبداً اياهم ا خسائر كبرى في صفوفهما .  
وبعد وفاة الامير ابي المظفر تولى الامارة من بعده اخوه ارسلان خان ابو منصور محمد بن علي الذي استمر حكمه حتى سنة 415 هـ / 1024 م ، وبعد وفاته تولى الامارة اخوه الامير قدرخان يوسف الذي سعى جاهداً لتحسين علاقاته مع الغزنويين وذلك عن طريق عقد العهود والمواثيق معهم فعندما وصلت الى مسامع الامير القراخاني قدرخان يوسف بان السلطان محمود الغزنوي قد عبر نهر جيحون ، توجه مسرعاً من مدينة كاشغر الى مدينة سمرقند قاصداً رؤية السلطان محمود ولعقد العهود والمواثيق معه ، فوصل بالقرب من معسكر السلطان محمود وارسل رسله اليه طالباً رؤيته ، فاجابه السلطان محمود بالقبول الحسن.

. وفي سنة 417هـ/1026م استقبل السلطان محمود سفراء الخليفة العباسي القادر بالله (381-422هـ)/(991-1030م) مباركين له على ما أنجزه من انتصارات وفتوحات في مناطق شاسعة فمنحه الخليفة ومنح ابناؤه الالقاب الفخمة ، وقد تم عقد معاهدة بينه وبين الخليفة تعهد له الخليفة بمقتضاها بان لا يدخل في علاقات مع القراخانيين او يُرسل اليهم هدايا الا عن طريقه هو - أي السلطان محمود - اذ انه كان يُعد القراخانيين بمثابة اتباع له في معظم مكاتباته مع الخليفة.